الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحيى . جيجل

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مقياس "منهجية البحث الأدبي"

السنة الثالثة، السداسي الخامس

المجموعة الأولى، دراسات أدبية

د: عبد الحق مجيطنة

محاضرات منهجية البحث الأدبي

المحاضرة 01 : تعريف البحث العلمي.

قبل تعريف البحث الأدبي وتعريف منهجية البحث الأدبي علينا في البداية أن نتعرف على البحث العلمي بصفة عامة باعتباره فعلا معرفيا تشترك فيه مختلف التخصصات، وباعتباره الأصل الأول للبحوث العلمية على اختلاف تفرعاتها وبتنوع حقولها (العلوم بمختلف تخصصاتها). فالبحث الأدبي هو واحد من فروع البحث العلمي عموما، وهو نوع من البحوث يختص بدراسة نوع من الظواهر شأنه شأن البحث العلمي في باقي التخصصات المعرفية سواء في حقل العلوم الطبيعية أو حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية.

بعيدا عن التعريفات اللغوية والمعجمية لمصطلح البحث العلمي (البحث العلمي في التعريفات اللغوية والمعجمية)، وبعيدا عن جدل المناقشات المتعلقة بتاريخ ظهور هذا المصطلح فإن البحث العلمي باختصار هو كل ممارسة معرفية مهما كان مجالها والتي تنصبّ على دراسة الظواهر مهما كان نوعها (ظواهر طبيعية أو ظواهر إنسانية)، يقوم بها فاعل معرفي (إنسان دون غيره) بإتباع مجموعة خطوات منظمة علميا (المنهج المعرفي)، بهدف تحقيق غايات محددة (أهداف البحث العلمي وهي التفسير، التحكم، التنبؤ).

فهو ممارسة معرفية ناتجة عن فعل معرفي يقوم به إنسان باحث عاقل واعٍ، متخصص علميا ومتمكن معرفيا ومتمرس منهجيا، يسلط جهده على دراسة وفهم وتفسير الظواهر الطبيعية (الفاعل فيها هو الطبيعة وهي الأفعال المادية الفيزيقية مثل ظواهر الفيزياء والكيمياء والأحياء... الخ) وكذلك الظواهر الإنسانية (الفاعل فيها هو الإنسان وهي الأفعال العاقلة الواعية الذكية مثل ظواهر المجتمع والظواهر النفسية

والتاريخ والأدب والفن... الخ). وتتم هذه الدراسة عبر خطوات منسقة ومنظمة ومرتبة علميا، بشكل يجعل دراستها سهلة الخطوات ودقيقة النتائج.

البحث العلمي هو الطريقة المثلى في التفكير والتي تستهدف مُختلف جوانب الحياة الاجتماعية للإنسان في العصر الحديث، والبحث العلمي هو المقياس الأول لقياس مدى عظمة وتحضُّر هذه الدول الحداثية وقدرتها على السيطرة على فضائها الجغرافي والبشري والطبيعي، واستغلاله بأفضل الطرق وأكثرها نجاعة وأسهلها منهجا. فالبحث العلمي هو الأسلوب الذي يمكن من خلاله دراسة مشكلة ما (إشكالية معرفية)، واستغلال جميع الشواهد والمعلومات والأدلة لحلها واستخلاص نتائج علمية.

وهو الضابط المنهجي العقلاني المتبع في تفسير الظواهر مهما كان نوعها؛ لتوضيح مكنون ظاهرة معينة، والعمل على تفسير ما يحيط بها من غموض. وهو كذلك مجموعة من الخطوات المتكاملة التي يتم استخدامها في جمع وتبويب وتحليل البيانات، ومن ثم سَوْق النتائج الجديدة؛ لحل مشكلة ما تُطرح أمام الباحث.

البحث العلمي هو المجهود الفكري المنسق الذي يهدف إلى الاستقصاء والتحقيق والتحليل والمقارنة والوصف للوصول إلى حلول واقعية، وهو التقرير الشامل الذي يقوم به الباحثون، على أن يتضمن التقرير جميع الإجراءات التي تم تنفيذها للوصول إلى نتائج وفقًا لبراهين واضحة. وهو العرض التفصيلي بأسلوب مرتب ومتطور للأفكار ابتداءً من اقتراح مشكلة الدراسة، وانتهاءً باستخلاص نتائج دقيقة ومنهجية. ويمكننا اختصار البحث العلمي في المعادلة التالية:

البحث العلمي = الموضوع المعرفي + المنهج المعرفي + الهدف المعرفي

الموضوع المعرفي: هو الظاهرة موضوع الدراسة، وهو الشيء الذي نخضعه للبحث والمناقشة والتنقيب باستعمال الوسائل العلمية المتاحة. مثل الظواهر الطبيعية المختلفة (الفيزيائية والكيميائية والحيوية... الخ) والظواهر الاجتماعية والإنسانية المتنوعة (الاقتصادية والنفسية والأدبية... الخ).

المنهج المعرفي: هو الطريقة المتبعة في الدراسة. وهو مجموعة من الخطوات المنظمة بريقة علمية والتي تتيح للباحث طرح الإشكالية (سؤال علمي) والإجابة عنه (نتيجة علمية) بالسير على طريق منظم ودقيق. بدءًا بطرح التساؤل العلمي ومرورا باستجواب الظاهرة وجمع البيانات وتحليلها ثم معالجتها وقراءتها علميا حتى الخلوص لنتائج علمية.

الهدف المعرفي: هو الغاية المرجوة من الدراسة، وهي الأهداف التي يسعى نحو تحقيقها أي بحث علمي في أي حقل معرفي. وهي على العموم أهداف تتعلق بـ: التفسير والتحكم والتنبؤ (تفسير الظاهرة وفهمها + التحكم في الظاهرة وتعديلها + التنبؤ بالظاهرة قبل وقوعها).

المحاضرة 02: تعريف البحث الأدبي.

بما أن البحث الأدبي فرع من فروع المعرفة العلمية، وعلى ضوء ما تقدم في تعريف البحث العلمي، فإننا نستطيع اشتقاق التعريف التالي في تحديد مفهوم البحث الأدبي: هو كل ممارسة معرفية تنصب على دراسة الظواهر الأدبية مهما كان نوعها (نصوص شعرية أو نثرية) يقوم بها فاعل معرفي (باحث أدبي) بإتباع مجموعة خطوات منظمة علميا هي ما يُعرف بالمنهج المعرفي (منهج البحث الأدبي)، بهدف تفسير الظواهر الأدبية والتحكم فيها وحتى التنبؤ بها.

البحث الأدبي = الموضوع المعرفي + المنهج المعرفي + الهدف المعرفي

↓ ↓ ↓

(ظاهرة أدبية) (منهج البحث الأدبي) (هدف البحث أدبي)

01 ـ الظاهرة الأدبية:

المقصود بالظاهرة الأدبية تلك الأفعال الإنسانية التي تنتظم تحت صنف واحد يندرج ضمن ما يُعرف في تاريخ المعارف الإنسانية بـ: الأدب أو الآثار الأدبية أو النصوص الأدبية، والتي تعتمد على اللغة الإنسانية باعتبارها حاملا ماديا لها. وتشمل كل أصناف التعبير الإنساني الممكنة: في أشكال لغوية وأشكال غير لغوية، من أعرقها وأكثرها بساطة إلى أحدثها وأكثرها تعقيدا. وغالبا ما كانت تتجلى في شكلين اثنين

متعارف عليهما: الشعر والنثر وما يتفرع عنهما من فروع متباينة ومتشابهة (الشعر العمودي، الشعر الحر، الشعر النثري، الرواية، الملحمة، الأسطورة، الخاطرة، القصة، المسرحية، المقالة، الرسالة، المقامة... الخ).

02 ـ منهج البحث الأدبي:

هو سلسلة منظمة من الخطوات المنهجية التي تقوم على تحديد الموضوع الأدبي قيد الدراسة تحديدا دقيقا وتقديمه للمناقشة العلمية في شكل سؤال علمي يعكس الإشكالية التي يثيرها هذا الموضوع، وإخضاعه للاستنطاق بهدف جمع البيانات التي تصف حقيقته باستخدام مجموعة أدوات تقنية، هذه البيانات القابلة للمعالجة العلمية وفق تقنيات التحليل الكمي والكيفي والتي ينتج عنها مجموعة معلومات قابلة للقراءة العلمية على ضوء النظريات المفسرة لهذا النوع من الظواهر أو لظواهر مشابهة لها، من اجل الخلوص إلى إجابات علمية عن الأسئلة التي يثيرها الموضوع الأدبي.

03 ـ الهدف المعرفي الأدبي:

يحاول البحث الأدبي شأنه شأن البحوث العلمية في حقول معرفية أخرى تحقيق أهداف كبرى يسعى لتحقيقها، تتلخص عموما في محاولة تفسير الظاهرة الأدبية وفهمها بدرجة أولى، والتحكم في مختلف آثارها بشكل أقل، والتنبؤ بتلك الظواهر قبل وقوعها وذلك أقسى ما قد يأمله البحث الأدبي.

المحاضرة 03: البحث الأدبي، موضوعه وخصائصه.

01 ـ موضوع البحث الأدبي:

أشرنا فيما سبق أن البحث الأدبي يعالج الظواهر الأدبية المختلفة؛ أي جميع الظواهر التي يمكن اعتبارها أدبا، سواء كانت نثرية أو شعرية بمختلف أشكالها التعبيرية (شعر قديم وحديث وعاصر، رواية، قصة، مقالة، رسالة ...الخ)، في مختلف العصور الأدبية منذ ما قبل التاريخ وحتى يومنا هذا، ومن أقدم الآثار الأدبية إلى أحدثها. ويبدو أمر تحديد موضوع البحث الأدبي سهلا يسيرا، فليس من الصعب علينا أن نتعرف على النصوص الأدبية أو الآثار الأدبية بمختلف تمظهراتها الممكنة شفهية أو مدونة، لغوية أو غير لغوية، في بطون الكتب أو في النقوش والمخطوطات.

لكن تاريخ الدراسات الأدبية والنقدية يثبت دوما أن ما كان يُعتبر أدبا في مرحلة ما لا يُعتبر كذلك في مرحلة أخرى، وأن مفهومنا للأدب ظل دوما مرهونا بوعينا للأدب في تلك المرحلة دون غيرها، وما يلبث أن يتغير ذلك المفهوم بتغير مناهج البحث الأدبي وتغير زوايا النظر إلى تلك الظواهر الأدبية. وبالتالي فإن تحديد الموضع المعرفي في الدراسات الأدبية أمر ينطوي على بعض الخطورة المنهجية.

لقد ظل مفهوم الشعر الذي جاءت به البلاغة (نظرية النقد المعيارية) صالحا لتحديد موضوع الدراسة في البحوث الأدبية ردحا من الزمن؛ الشعر كلام موزون مقفى. ولم يزل كذلك حتى انهار مع الطرح الجديد الذي تقدمت به نظرية النقد السياقي وما جاء بعده؛ نظرية النقد البنيوي وما بعد البنيوي. وانهار

المفهوم بشكل رسمي مع ثورة الشعر الحداثية وما بعد الحداثية في عصر الشعر الحر وشعر النثر الذي قلب المفاهيم بشكل جعلنا نعيد النظر في مفهومنا للشعر والأدب.

الأمر نفسه نراه بشكل واضح في نظريات السرد التي ما فتئت في كل مرة تعيد موقعة نفسها في سياق معرفي جديد يواكب التحولات السريعة والخاطفة التي طرأت على الرواية والقصة وكل جنس السرد، والتي جعلتها تعيد تعريفها للمواضيع السردية بما يتناسب والأشكال السردية الجديدة (الرواية الجديدة، الرواية السوريالية، الواقعية السحرية.... الخ).

من أجل ذلك وقبل الخوض في مساءلة المواضيع المعرفية الأدبية (الظواهر الأدبية) مهما كان نوعها، علينا دوما أن نكون حذرين أثناء تموقعنا إزاءها أثناء تحديدها، تجنبا للوقوع في الأخطاء المنهجية المتعلقة بالأفكار القبلية المسبقة والأحكام المعيارية والقيمية والمفاهيم غير العلمية التي تشوه حقيقة هذه الظواهر الأدبية وتجعلنا نقول فيها ما ليس منها.

02 ـ خصائص البحث الأدبي.

يمتاز البحث الأدبي بمجموعة خصائص تتعلق بـ: الموضوع المعرفي (الظاهرة الأدبية)، والمنهج المعرفي (منهج البحث الأدبي)، والفاعل المعرفي (الباحث الأدبي). وتشكل في مجموعها الخصائص العامة للبحث الأدبي العلمي، والتي تتحدد بموجبها علمية أي بحث أدبي وصرامته المنهجية ودقة نتائجه. ومن أجل تحقيق العلمية في أي بحث أدبي على الباحث التقيد بهذه الشروط العلمية، وعلى قدر استيفائه للشروط العلمية يكون بحثه علميا وذا مصداقية من الناحية المنهجية.

يمتاز البحث الأدبي بالعلمية والصرامة المنهجية، وهو نتيجة منطقية للتطور العلمي الذي شهدته مختلف حقول المعرفة الإنسانية، وهو ردة فعل موازية للتطور العلمي والمنهجي الذي تشهده المعارف بصفة عامة والمعارف العلمية في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية بصفة خاصة. ويمكننا إجمالها فيما يلي:

أ ـ خصائص الموضوع المعرفي:

01 . أن يكون الموضوع الأدبي قابلا للدراسة، ويكون هذا الموضوع الأدبي قابلا للدراسة إذا كان قابلا للتجلي الحسي (أن يكون محسوسا)؛ أي خاضعا لحواس الإنسان. فكل ما لا تدركه الحواس فهو غير موجود وغير قابل للدراسة في حقل العلوم بصفة عامة وفي حقل الدراسات الأدبية بصفة خاصة، وهو مجرد وهم أو خيال لا أثر له في الواقع المادي. وعلى الباحث الأدبي أن يجتهد في تحديد الموضوع الأدبي الذي يدرسه من خلال الإحاطة به وإدراكه في شكله المادي القابل للدراسة.

مثل دراسة الجمال الأدبي باعتباره موضوعا قابلا للدراسة إذا كان هذا الجمال قابلا لأن يُدرَك بالحواس؛ أي قابلا للتجلي الحسي في شكل مادي قابل للإدراك الحسي وقابل للقياس الكمي، وعلى الباحث في هذا السياق أن يسعى لتحديد الجمال الأدبي بشكل يمكنه من إدراكه في شكله المحسوس. فإذا استطاع الباحث تحويل الجمال الأدبي من صيغته المجردة إلى صيغته المحسوسة استطاع تقديم دراسة علمية ذات مصداقية عالية منهجيا.

02 . أن يكون للموضوع الأدبي حدود تحده، والتي يمكن تحديد معالمها في المجال الزماني والمكاني والبشري. فكل ظاهرة أدبية هي بالضرورة حدث أو فعل، وكل حدث أو فعل لابد أن يقع في الزمان (المجال الزمني) والمكان (المجال الجغرافي)، وتصدر عن الإنسان ويشارك فيها عدد معين من البشر

(مؤلف، قارئ، ناقد، رافض، مؤيد ...الخ). ومن أجل دراسة علمية لهذه الظاهرة الأدبية لابد أن يتم تحديد هذه المجالات بدقة متناهية حتى يستطيع الباحث رصدها ودراستها.

مثلا: دراسة ظاهرة الرثاء في الأدب العباسي تتطلب منا تحديد المجال الزماني والمكاني والبشري لهذه الظاهرة الأدبية حتى نستطيع دراستها بشكل دقيق علميا، فنحدد المجال الزماني وهو العصر العباسي منذ النشأة وحتى الزوال، والمجال المكاني هو حدود الرقعة الجغرافي للدولة العباسية عبر العصور، والمجال البشري هو الشعراء العباسيون الذين عاشوا خلال تلك الحقبة الزمنية في تلك الرقعة الجغرافية، ليتم التدقيق أكثر باختيار شاعر محدد ليكون أنموذجا للدراسة التطبيقية وهو في لغة المنهجية العلمية ما يصطلح عليه بالعينة (عينة الدراسة).

03 . أن يكون الموضع حاملا لحقيقته في داخله؛ فالشيء مستبطِن لحقيقته، بمعنى أنه يحمل في داخله حقيقته، فالحقيقة موجودة في داخله فقط وليس في خارجه. فالباحث يستقصي حقيقة الظواهر الأدبية في داخل هذه الظواهر، من خلال مساءلتها والبحث في جوهرها وليس في خارجها. على الباحث الأدبي دوما أن يبحث عن حقيقة الظاهرة الأدبية في داخلها وليس خارجها، فلا يقبل أبدا الأحكام التقييمية والمعيارية المسبقة، ويرفض النظرة المعرفية غير العلمية والتفسيرات الساذجة، ويعارض التأويلات الأيديولوجية والتيولوجية (الدينية) التي تقدم قراءة غير علمية لهذا الأدب أو ذلك الشعر في أي عصر كان.

فإذا أراد الباحث دراسة ظاهرة أدبية ما فعليه دوما وأبدا أن يدرسها في ذاتها ولذاتها بعيد عن تلك المؤثرات غير العلمية والنظريات الفلسفية غير الموضوعية، فلا يقبلها مهما كان مصدرها ومهمن كان قائلها، حتى يحافظ على حقيقة الظاهرة الأدبية التي يدرسها بعيدة عن كل ما يشوهها ويغيرها لمصلحة جهة

ما مهما كان نوعها وتوجهها. فأخطر ما يواجه البحث العلمي هو تلك الأحكام غير العلمية الجاهزة للاستعمال القبلي في تفسير الظواهر الأدبية والتي غالبا ما توقع الباحث في أخطاء منهجية تشوه حقيقة تلك الظاهرة وتطعن في مصداقية نتائج الدراسة وعلميتها. مثل الأحكام المعيارية التي واجهت الشعر العربي خلال عقود طويلة والتي تقضي بأن الشعر هو كل كلام موزون مقفى.

ب ـ خصائص المنهج المعرفي:

01 ـ أن يكون المنهج المعرفي المعتمد في دراسة الظواهر الأدبية مستنبَطا من الموضوع المعرفي ومستلهَما منه، وليس مستَوردا من خارجه. فالأولوية الأولى دوما هي للموضوع المعرفي في اختيار المنهج المناسب للدراسة الأدبية، وعلى المنهج المعرفي أن يواكب الموضوع المعرفي ويناسبه بما تقتضيه الضرورة العلمية. فإذا كان المنهج المعرفي غير قادر على دراسة الموضوع المعرفي وغير مواكب له فعلى الباحث أن يعدل ويطور ويغير في هذا المنهج بما يناسب طبيعة الموضوع المعرفي المطروح للدراسة العلمية، وليس العكس (تعديل الموضوع المعرفي لحساب المنهج المعرفي).

02 ـ أن يكون المنهج كميا معتمدا على القياس الكمي للظواهر الأدبية؛ بمعنى تكميم الظواهر الأدبية وتحويلها إلى أرقام رياضية (رقمنة الأدب). لم تبلغ العلوم الطبيعية والفيزيائية وكذلك العلوم الاجتماعية والإنسانية مستوى التطور الذي بلغته إلا بفضل لغة الرياضيات ولغة الأرقام، ولم تستقر على ما هي عليه اليوم إلا بعد اعتمادها على القياس الكمي بدلا من القياس الكيفي في وصف الظواهر التي تدرسها. وعليه فإن منهج البحث الأدبي مطالب كغيره من المناهج أن يتبنى هذا المنطق الكمي في سبيل الوصول إلى مستوى الدقة العلمية التي بلغته تلك العلوم، ولو بالقدر الذي يسمح جمهور الباحثين أن يصلوا

إلى مستوى مقبول من الاتفاق العلمي في وصف الظواهر الأدبية الخاضعة للدراسة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الظاهرة الأدبية ذات خصائص تجعلها غير قابلة بسهولة للتكميم كغيرها من الظواهر الطبيعية والاجتماعية.

03 ـ المنهج المعرفي في البحوث الأدبية هو منهج غير يقيني؛ يقوم على مقاربة الحقيقة ولا يصل إليها بصفة مطلقة. الحقيقة المطلقة من صميم المناهج المعرفية غير العلمية مثل المعارف اللاهوتية التي تقول بالحقيقة المطلقة وبالمركزية المعرفية (بمعنى الحقيقة موجودة وهنالك من يملكها وتتمركز في يده هو غالبا إله أو نبي أو شخص يملك الحقيقة المطلقة). وعليه فالمنهج المعرفي في البحوث العلمية الأدبية هو منهج قاصر عن إدراك الحقيقة المطلقة بل يقاربها فحسب، وبالتالي فهي معارف قابلة للأخذ والرد وقابلة للطعن والنقض، عكس المعارف اللاهوتية. وهذه الخاصية هي من صميم جوهر علمية المنهج المعرفي في البحوث الأدبية، فلا يكون المنهج المعرفي علميا إلا إذا كان ناقصا غير تام، وهذا ما يفتح الباب واسعا أمام تطور المعرفة العلمية من خلال القطيعة الاستمرارية.

ج ـ خصائص الفاعل المعرفي:

01 ـ أن يكون الفاعل المعرفي إنسانا عاقلا واعيا متخصصا علميا، بمعنى أن تصدر المعرفة العلمية في البحوث الأدبية عن الإنسان دون غيره، فلا نقبل جميع المعارف ذات المصدر غير الإنساني. وفي هذا الصدد تُرفض جميع المعارف ذات المصدر اللاهوتي غير الإنساني باعتبارها شكلا من أشكال المعارف غير العلمية.

02 ـ أن يكون الفاعل المعرفي محايدا وموضوعيا وغير متعاطف مع الموضوع المعرفي الذي يدرسه بأي شكل من الأشكال وتحت أي ظرف من الظروف، بما يسمح للباحث أن يمارس فعلا معرفيا موضوعيا قادرا على دراسة الموضوع كما هو لا كما يريده الباحث عن قصد أو عن غير قصد. وهذا يعني أن يمنع الفاعل المعرفي نفسه من التعاطف مع الموضوع المعرفي سلبا أو إيجابا حتى لا يشوه حقيقة الموضوع الذي يدرسه؛ أي يترك مسافة بينه وبين موضوعه.

03 ـ تشييء الموضوع المعرفي، بمعنى أن ينظر الباحث إلى موضوعه الأدبي باعتباره شيئا غير ذي معنى بالنسبة له، حتى يتمكن من سبر أغواره بعيدا عن تأثيرات محتملة لأيديولوجيته أو عقيدته أو نفسيته، والتي من شأنها إحداث تعاف مع الموضوع وبالتالي تشويه حقيقته لحساب تلك العقيدة أو تلك الأيديولوجيا، وهذا أقسى ما قد يواجهه الفاعل المعرفي في رحلة البحث العلمي.

المحاضرة 04 : خطوات البحث الأدبي.

كما سبق ذكره فإن للبحث العلمي خطوات منظمة ومنسقة منهجيا ووفق المنطق العلمي الذي يراعي خصائص الظاهرة التي يدرسها، وبما أن البحث الأدبي فرع من فروع البحث العلمي فإن له كذلك خطوات يسير عليها ويتبعها في سبيل دراسة موضوع أدبي ما، ويمكننا تلخيص هذه الخطوات في النقاط الأربع التالية:

أولا: تحديد موضوع الدراسة.

يقوم الباحث في البداية بتحديد الموضوع الذي يدرسه تحديدا دقيقا في جميع مجالاته (المجال الزماني والمجال المكاني والمجال البشري). فكل دراسة علمية لابد أن تقوم على مجال زماني معين، يحدّ الدراسة زمانيا، ويحدّد أطرها التاريخية التي تشتغل ضمن نطاقها. والمجال الزمني لأي دراسة، هو "المجال الزمني الذي يتم خلاله رصد متغير كمّي قابل لإعادة إنتاج نفسه خلال هذه الفترة الزمنية.

وكذلك كل دراسة أدبية تقوم على مجال مكاني معين، يحدّ مجال الدراسة جغرافيا، ويحدد أطرها الجغرافية التي تنحصر ضمنها؛ وذلك بهدف تحديد أدقّ لملامح المجتمع الذي تتناوله الدراسة. كما تقوم هذه الدراسة الأدبية على مجال بشري هو: مجموع الأشخاص المساهمين في هذه الظاهرة الأدبية.

ثانيا: جمع بيانات الدراسة.

يجمع الباحث بيانات الظاهرة الأدبية التي يعكف على دراستها من خلال استجواب الظاهرة أو استنطاقها باستعمال مجموعة أدوات منهجية عديدة لجمع البيانات والمعطيات، من أجل معالجتها

وتحليلها، بهدف وصف الظاهرة وتفسيرها، ويركز البحث الأدبي (الدراسة) على دقة جمع البيانات للأهمية التي تكتسيها في إعطاء وصف دقيق وجوهري لموضوع الدراسة. ومن المعروف أن مستوى البحث يتوقف على دقة المعلومات التي تجمع بوسائل مناسبة ودقة تحليلها.

فليس ذلك الرصيد النظري والمعرفي هو الذي ينال الأهمية القصوى في الدراسة العلمية، بل إن المعطيات الميدانية والبيانات المرصودة حول الظاهرة الأدبية، ومدى دقتها وشموليتها ومصداقيتها، ومدى تعبيرها عن جوهر الظاهرة... الخ، هو الذي ينال الأهمية القصوى. وعليه فقد اهتم البحث العلمي بجمع المعلومات الميدانية حول الظاهرة التي يعالجها أكثر من اهتمامه بالمادة النظرية للدراسة؛ وانطلاقا من هذا فإن البحث قد حاول الوصول إلى رصد دقيق للبيانات والمعطيات الميدانية (خاصة على مستوى الإحصاءات الرسمية التي تقدمها الوثائق الرسمية)، من أجل رصد جوهر الظاهرة.

وبعبارة أكثر دقة، حاول البحث رصد المعطيات الحقيقية التي تعبّر فعلا عن جوهر الظاهرة الخاضعة للمعالجة العلمية، من أجل عدم تشويه حقيقة الظاهرة، فليست كل المعطيات التي يمكن جمعها حول ظاهرة أدبية ما تعبر بالضرورة عن جوهر الظاهرة وحقيقتها، فكثيرا ما تشوّه هذه المعطيات الميدانية وجه الظاهرة الحقيقي، ولا تعبر عن جوهرها الفعلي. وليس من السهل بما كان أن نرصد كل المعطيات الحقيقية التي تعبر عن جوهر الظاهرة الأدبية، وقبل ذلك ليس من السهل بما كان معرفة جوهرها حتى نعرف طبيعة المعطيات الميدانية التي يجب رصدها من أجل دراستها، وليس من السهل بما كان أن نصل إلى معطيات صافية خالية من شوائب تشوّه الظاهرة، وتشوّه الدراسة العلمية للظاهرة الأدبية.

1 . الوثائق الرسمية.

يعتمد البحث في استقائه للمعطيات والبيانات الموضوعية حول الظاهرة موضوع المعاينة العلمية، على الوثائق الرسمية للإدارة والإحصاءات التي تقدمها الهيئات والمؤسسات الرسمية، وهي وثائق ذات مصداقية عالية باعتبارها صادرة عن جهات رسمية بغض النظر عن مدى صحتها. وتشمل الوثائق الرسمية كل ما يصدر عن المؤسسات والهيئات والجامعات والإدارات والمراكز والوزارات من وثائق تحمل طابعا رسميا يعتبر عن لسان حالها.

2 . الاستمارة.

يستعمل هذا البحث . في سبيل جمع المعلومات والبيانات الميدانية . تقنية الاستمارة أو الاستبيان، و"الاستبيان بمفهومه العام هو قائمة تتضمن مجموعة من الأسئلة معدة بدقة ترسل إلى عدد كبير من أفراد المجتمع الذين يكونون العينة الخاصة بالبحث. ويعرف أحيانا بأنه صحيفة تحوي مجموعة من الأسئلة التي يرى الباحث أن إجابتها تفي بما يتطلبه موضوع بحثه من بيانات. إنه عملية رصد المعطيات الميدانية من خلال طرح السئلة على المبحوثين، وتسجيلها، ليتم تحويلها إلى بيانات كمية ونوعية في مراحل لاحقة من البحث. ويعتبر الاستبيان من أهم وأدق طرق البحث وجمع البيانات وخاصة في البحوث الوصفية.

وهو يشير إلى الوسيلة التي تستخدم للحصول على أجوبة لأسئلة معينة في شكل استمارة يملؤها المجيب بنفسه. والاستبيان في أبسط صورة له هو عبارة عن عدد من الأسئلة المحددة يعرض على عينة من الأفراد ويطلب إليهم الإجابة عنها كتابة. فلا يتطلب الأمر شرحا شفويا مباشرا أو تفسيرا من الباحث.

وهذا الأمر يعني ببساطة التعامل مع عينة على مستوى معين من الثقافة، من حيث القدرة على القراءة والفهم والكتابة؛ أي أن أفراد العينة على مستوى مقبول من الثقافة، بحيث يمكنهم التعامل مع الاستبيان.

3 . المقابلة.

يستعمل هذا البحث . في سبيل جمع المعلومات والبيانات الميدانية . تقنية المقابلة الشخصية، والمقابلة: هي تقنية عملية دقيقة في البحث العلمي باستخدام عملية الاتصال الشفهي، لجمع المعلومات فيما يتعلق بالهدف المرجو. والمقابلة الشخصية هي عبارة عن استبيان شفوي، وتعني الالتقاء بعدد من الناس الذين يشكلون عينة الدراسة، وسؤالهم شفويا عن بعض الأمور التي تهم البحث، وذلك بهدف جمع إجابات تتضمن معلومات وبيانات يفيد تحليلها في الإجابة عن الإشكالية واختبار الفروض.

ويمكن تعريف المقابلة بأنها عبارة عن محادثة موجهة بين الباحث وشخص أو أشخاص آخرين بهدف الوصول إلى حقيقة أو موقف معين يسعى الباحث لتعرّفه من أجل تحقيق أهداف الدراسة. وهي إحدى وسائل جمع البيانات الميدانية من مصادرها وتتم بين طرفين (الباحث والمبحوث) حول موضوع محدد سلفا، وتهدف المقابلة إلى التعرف على الظاهرة أو الموضوع بالبحث عن الأسباب من خلال التقاء مباشر بين الباحث والمبحوث تطرح فيها أسئلة تهدف إلى استيضاح الحقائق وتشخص فيها المعلومات بربط العلاقة بين المتغيرات المستقلة والتابعة؛ أي البحث عن علاقة ارتباطية بين المتغيرات فهي عنصر مهم في التعرف إلى الظاهرة الاجتماعية أكثر حيث "يستطيع الباحث أن يستكمل ملاحظاته العلمية بالمقابلات. خاصة إذا كان الباحث بعيدا عن الظاهرة التي يحاول دراستها، فالمقابلة مجال مناسب للاحتكاك بالظاهرة الأدبية عن قرب.

ويمكن القول: إن المقابلة هي استبيان شفوي، دعت الضرورة العلمية إليها، وإذا ما قارنا المقابلة بالاستبيان فإننا نجدها تمتاز عليها بأنها أكثر مرونة إذ أنه من الممكن دائما إعادة صياغة الأسئلة للتأكد من فهم الفرد لها. ولذلك فإن المقابلة إدارة أكثر صلاحية للكشف عن جوانب المواضيع التي لا تعرف عنها ما يكفي لاختيار الأسئلة التي توجه أو طريقة صياغتها.

4 . الملاحظة.

يستعمل هذا البحث . في سبيل جمع المعلومات والبيانات الميدانية ووصفها وتحليلها . تقنية الملاحظة العلمية أو المشاهدة العينية المباشرة من طرف الباحث، وبما أن الملاحظة هي مشاهدة مقصودة دقيقة ومنظمة وموجهة هادفة عميقة. ترتبط بين الظواهر وهي رؤية منظمة ممزوجة باهتمام بالظواهر الخاضعة لها وقد تستعين بآلات وأدوات علمية دقيقة. وهي مشاهدة دقيقة وعميقة لظاهرة ما مع الاستعانة بأساليب البحث والدراسة التي تتلاءم مع طبيعة هذه الظاهرة. أو هي مشاهدة منهجية تعتمد على الحواس وما تستعين به من أدوات المرصد والقياس ومفهوم الملاحظة يشير إلى أنها مشاهدة للظواهر في أحوالها المختلفة وأوضاعها المتعددة لجمع البيانات وتسجيلها وتحليلها والتعبير عنها بأرقام.

وبما أنها فحص السلوك مباشرة عن طريق باحث أو مجموعة أشخاص يقومون بدور الملاحظين وتحتاج الظواهر المعقدة إلى درجة من التحليل، أو التركيب، أو تفسير البيانات. وبما أن هذا البحث هو دراسة ميدانية (بحث ميداني)، والبحث الميداني هو بحث تجمع بياناته من خلال ملاحظة للوقائع في مجالاتها الطبيعية. فإنه . في طياته . يعتمد على تقنية الملاحظة. والبحث العلمي في حقل الدراسات الأدبية . قبل كل

شيء . هو ملاحظة علمية لظواهر اجتماعية، أو هو ملاحظة علمية لجوانب خفية من الظاهرة الاجتماعية الخاضعة للمشاهدة الحسية اليومية.

وعليه فالملاحظة العلمية هي جوهر البحث العلمي، وهي الجوهر في الكشف عن الظواهر الأدبية بصفة خاصة والظواهر الأخرى بصفة عامة، والجوهر في طرح الإشكالية، والجوهر في صياغة الفرضية. إذ عن طريق الملاحظة يستطيع الباحث أن يجمع الحقائق التي تساعده على بيان المشكلة عن طريق استخدامه لحواس السمع والبصر والشك والشعور.

ثالثا: معالجة بيانات الدراسة.

بعد جمع البيانات تأتي مرحلة معالجتها وإخضاعها للتحويل من مادة خام إلى مادة علمية قابلة للقراءة العلمية وهي ما يعرف بالمعلومات، فالمعلومات هي بيانات خضعت للمعالجة العلمية (بيانات + معالجة = معلومات). حيث يعكف الباحث على إدخال البيانات المتحصل عليها في الخطوة السابقة في أنظمة معالجة خاصة بها. وتشمل هذه العملية المعالجة الإحصائية باستعمال علم الإحصاء بمختلف فروعه (الإحصاء الوصفي والرياضي والتطبيقي) وكذلك المعالجة الرقمية والمعلوماتية باستعمال الحواسيب والأجهزة المناسبة، من أجل الحصول على معلومات في شكل كمي: أرقام وجداول إحصائية ومنحنيات بيانية ودوائر نسبية ونسب مئوية ... الخ.

هذه المعلومات هي أقصى ما يسعى إليه الباحث في الدراسات الأدبية، باعتبارها الشكل العلمي الرقمي (الكمي) للظاهرة موضوع الدراسة والتي تتمتع بمصداقية عالية في عالم البحث العلمي. قد يواجه الباحث الأدبي صعوبات جمة في سبيل تحقيق هذه الخطوة عمليا، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى

خصائص الموضوع المعرفي (خصائص الظاهرة الأدبية) وقصور المنهج المعرفي (منهج الدراسات الأدبية) بالدرجة الثانية.

رابعا: استخلاص نتائج الدراسة.

في هذه الخطوة يقوم الباحث الأدبي بتقديم تفسير للظاهرة على ضوء المعلومات التي بين يديه وبالاستناد إلى الإطار النظري للدراسة والفرضيات العلمية التي يكون قد صاغها في مرحلة تحديد موضوع الدراسة، ليخلص إلى نتائج علمية ذات مصداقية عالية جدا بغض النظر عن صحتها، وهي الخطوة الأخيرة من خطوات البحث الأدبي العلمي. كما يقدم الباحث هنا مجمل توصياته واقتراحاته والحلول الممكنة للمشكلة التي تثيرها الظاهرة موضوع الدراسة، في شكل علمي بسيط وسهل ومباشر.

قائمة المراجع:

. محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، دون طبعة، 2006.

. حسن شحاتة، زينب النجار: معجم المصطلحات التربوية والنفسية، عربي . إنجليزي، إنجليزي . عربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003.

. مروان عبد المجيد إبراهيم: أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2000.

. محمد عبيدات وآخران: منهجية البحث العلمي "المراحل والقواعد والتطبيقات"، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، الطبعة الثانية، 1999.

- Madeleine GRAWITZ: LEXIQUE DES SCIENCES SOCIALES, 8ème édition, EDITION DALLOZ, Paris, 2004.

- Marc JAYAT: INTRODUCTION A LA SOCIOLOGIE, 3ème édition, HACHETTE LIVRE, Paris, 2008.